

الخير والاهتداء بالشرع الرباني، كلاهما تمثل أصول الخيرية ومرجعيات الإيجابية ومصادرها الفاضلة، تستمد منها الأفكار والأعمال والروابط بين وحدات الوجود - الإنسان والكون - قوتها وإيجابياتها وخيراتها. يستمد الإسلام - عقيدة وشرعية - قوته الإيجابية وخبريته من القوة الإلهية المطلقة في الذات والصفات والأفعال، ويتجسد ذلك في حياة المسلمين الروحية والمادية، الفكرية والعملية، فالمرجعيات الإسلامية الفكرية والعقدية والشرعية والأخلاقية وغيرها تفتقر إليها المسيحية الظاهر زيفها واليهودية البين عقمها ومكر أصحابها، ففي الإسلام القول الفصل في كل ما يتصل بالإنسان في الحياة الدنيا وفي العالم الآخر، وفق منظور غاية في الدقة والصحة والكفاية والتمام والكمال، وقمة في الاعتدال والإنصاف والاستقامة والوسطية والعظمة. قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (الأنعام/ 38). قال تعالى في قوة الإسلام وكمال منهجه وتمام نعمه على عباده في النظر والعمل، في الدارين والدنيا، في حياة الفرد والجماعة معاً: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا) (المائدة/ 3). وقال تعالى في شمول إرادته وعدله ورحمته لكل شيء: (وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِنْهُ لَا يَخْلِفُونَ نَبَأَ وَلَا تَلَا تَنَّا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف/ 49). وقال تعالى: (وَإِذَا تَبُوءُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلِيمٌ) (النحل/ 76). وقال تعالى: (وَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَّا إِيمَانُهُ بِهِمْ مِنْ أَشْيَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/ 156). وقال تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنعام/ 115). وقال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (النحل/ 76). وقال تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي رُبِّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ فِي الْإِسْلَامِ يَجْمَعُ بَيْنُنَا وَإِلَيْهِ الْإِمَارَةُ) (الشورى/ 15). تتجسد قوة التوازن الإسلامي الديني والدنيوي في المبادئ والمنطلقات المتسمة بالمنعة والمتصفة بديمومة الصلاحية، وبطيب وبنجاعة وفعالية السبل والوسائل والمسارات وسائر الإمكانيات التي أتاحها الله لعباده، تكريماً لهم وتفضيلاً على كثير من خلقه، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا لَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء/ 70). وقال تعالى: (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) (الإسراء/ 21).

وأتاح الله لعباده إمكانيات الزلل والرجوع إليه، فيكون أحسن عليهم من الوالدة برضيعها. قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّ رَبَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53). ويتحقق بقوة عجيبة اعتدال الذات الإسلامية روحاً ومادّة في مقابل الاختلال والعفن والفساد في غيرها، ذلك بواسطة الغائية الإسلامية المبني عليها الفعل المقاصدي نظراً وعملاً، وتجسد ذلك بقوة في التجربة النموذجية النبوية الطاهرة الشريفة، لما اكتسبته من العناية الإلهية تكريماً ووصفاً، واقتفى آثارها ولا زال الإنسان كذلك ابتداء من الصحابة حتى الآن وإلى يوم الدين، وبأن ذلك في اعترافات الكثير من رواد الفكر والعلم من أهل الثقافات والديانات والملل والنحل الأخرى، حتى أصحاب تلك النحل التي تعادي الإسلام إلى أبعد الحدود. قال تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) (الشرح/ 1-4). وقال تعالى يصف خلق نبيه محمد (ص): (وَإِنَّا لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم/ 4).

كان للعلماء حضورهم القوي في جميع وترتيب عناصر المنظومة المقاصدية في بنية بلغت من الإحكام والضبط والدقة والكفاية ما لم تشهد منظومة تشريعية على مر التاريخ، وتتصل بالحياة ككل ضرورة

وحاجة وتحسينا، كما تحفظ الإنسان في نفسه وعقله ودينه ماله وعرضه. قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران/ 7). وقال تعالى: (أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ أَبَدًا اللَّيْلُ سَاجِدًا وَقَانِمْ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّكُمْ يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر/ 9).

والبنية المقاصدية الإسلامية هي ذات تأصيل إسلامي في القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة، وتأسيس علمي اجتهادي، تكوّنت في سياق تاريخي يرتبط بالزمان والمكان، بما في الزمان والمكان من جزئيات وتفصيلات وتغيّرات تناسب هذا السياق التاريخي دون غيره، ففيها ما اخترقت فعّاليته حدود الزمان والمكان، وفيها ما فقد صلاحيته وأصبح جزء من الماضي، الأمر الداعي إلى بذل الوسع باستمرار وبدون توقّف ومن غير انقطاع فيما فيه خير الإنسان في الدّين والدنيا، وللتأكيد الإسلامي على الزمان والمكان، على المادّي والروحاني، على التوازن في الحياة على المستوى الفردي وعلى المستوى الفئوي وعلى المستوى الاجتماعي وعلى المستوى الإنساني الأُمّمي، قال تعالى في صرف الناس عن الأحادية في الفكر والتصور وتجنّبهم التطرّف في السلوك والمُغلاة والبغي من خلال نموذج شعيبة الصلاة: (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِمِصْلَاتِكُمْ وَلَا تُخَافُوا بِهِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (الإسراء/ 110).

والحرص الدعوى على ضرورة مجابهة سائر التطوّرات والتحدّيات والمشكلات التي تعرفها الحياة البشرية بجميع جوانبها مجابهة إيجابية، وضرورة الاضطلاع بمهام وصلاحيات وواجبات وحقوق البناء الحضاري واستئنافه، وحتمية التصدّي لمعيقات الحراك التاريخي صوب الحضارة، ومنع كلّ الأسباب المؤدية إلى التهميش والبطالة والتخلّف والتبعية في سياق الحراك التاريخي الحضاري المطلوب. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة/ 35). وقال تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص/ 77). وقال تعالى في ضرورة اتّباع شرعة الإسلام وتعاليمه: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الجاثية/ 18).

الإيجابية أو الخيرية - كلّ ما يجلب النفع ويُبعد الضرر في المعتقد والفكر والقول والممارسة العملية - محمّدة ومكرمة تقوم عليها المنظومة الأخلاقية الإسلامية والأدبية، تجسّدت هذه الإيجابية الأخلاقية في الأنموذج النبويّ الكريم القويم العظيم، وفي الاقتداء والتأسّي به إلى يوم الدّين، وهو أنموذج ربّاني اصطفاً وتكويناً وبنيةً وتأثيراً، فكان الأنموذج قرآناً يمشي على الأرض، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب/ 21). وقال تعالى: (قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعُتْدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَلَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَاصِبٌ وَإِلَيْكَ أُنِيبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (الممتحنة/ 4).

وكانت النبوة تتفاعل مع الواقع بفعل السماء من خلال مقتضيات التنزيل وأسبابه في الواقع وبواسطة الناسخ والمنسوخ وغيره، فجاءت أحكام القرآن تقبل الواقع تارة وتعارض عليه تارة أخرى، وفق ما تتطلبه الفطرة البشرية وبموجب ما يستلزمه الحال والمقال ويفرضه المنطق السليم من تدرّج ومرجعية وتأنّي في تغيير الأوضاع من السلب إلى الإيجاب، والخروج بالإنسان من ظلام الجهل والكفر والنفاق

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدُوّ أَحْطَا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (الطلاق / 12). ►

يتبع...